العرب
الأربعاء 2019/09/11
السنة 42 العدد 11464

مع جدار اليوميات الافتراضي وداعاً للخصوصية

إنسان العصر الحديث ضحية حب الظهور والاستعراض والمديح المجّاني

مع التطور التكنولوجي الهائل الذي غزا حياة الأفراد اليوم، بات من الصعب الحديث عن الخصوصية، التي أصبحت منتهكة كليا، كما ظهرت جلية العديد من المشاكل الاجتماعية التي ولدتها خاصة مواقع التواصل الاجتماعي لدى مستعمليها اليوميين.

هيثم حسين
كاتب سوري

هل تحوّل واقع الحياة المعاصرة إلى مرآة سوداء تكشف الدواخل المعتمة الباحثة عمّن يكشف لها خباياها الدفينة؟ إلى أيّ حدّ عبثت التكنولوجيا براحة الناس وأمانهم ودفعتهم إلى مهاوي القلق وأوقعتهم في براثن الوحشة واليأس؟ ألا يمكن القول إنّ الأسرار الشخصية أصبحت شيئاً من الماضي على اعتبار أنّ التكنولوجيا باتت فضّاحة وتظهر المرء كأنّه عارٍ وسط عاصفة محتدمة؟

> الخصوصية صارت مصطلحا زئبقيا، فالتكنولوجيا التي يفترض بها أن تيسر الحياة أفرزت مشاكلها وتأثيراتها

هل يمكن القول وداعا للخصوصية في زمن بات فيه المرء يشعر بأنّه محاصر بالتكنولوجيا التي تضيّق عليه حتّى لتكاد تخنقه بمزاياها التي تستدرجه إلى فخاخ الإدمان عليها، بحيث يستغرب بعدها كيف كانت حياته تمضي، أو تسير قبلها؟ ألا يفترض بالمخترعات الحديثة أن تكون لخدمة الإنسان وفي سبيل إسعاده؟ أليست السعادة بحدّ ذاتها حلم الإنسان المتجدّد عبر التاريخ؟

انتهاك الخصوصية

لعلّ وصف الانكشاف هو أحد أبرز الأوصاف المناسبة لواقعنا المعاصر الذي بات فيه المرء مكشوفاً لغيره، في حركاته وسكناته، في حلّه وترحاله.. والانكشاف هذا يتحوّل بالتقادم إلى سمة للعصر وأبنائه، تتمّ التضحية بالخصوصيّة، والسرّيّة، وحتى بالمشاعر المضمرة لصالح اللهاث وراء إيقاع جنونيّ لا يهدأ من الاستدراج إلى عوالم مستحدثة مثيرة، برّاقة بطريقة عامية وحاجبة للحقائق، فتظهر المرء وكأنّه عارٍ وسط حفلة غرائبية لا تستدلّ إلى دربٍ للتهدئة..

نجد أنّه يخرج بين الفترة والأخرى تطبيق يبادر كثيرون إلى التحذير من مخاطره على الخصوصية، وكأنّ الخصوصيّة كنز في عالم منفتح على بعضه بعضا بطريقة مرعبة، حيث يمكن للآخر معرفة ما إن كنت متاحا أو لا، والساعة التي فتحت فيها هذا التطبيق على هاتفك، أو اللحظة التي خرجت منه، وذلك من دون تجشّم أيّ عناء للمراقبة أو الاقتفاء. لأنّ الرقيب المنشود لمزاياه غدا جزءا من الحضور الشخصيّ نفسه، ومكمّلا له، بحيث فقدانه أو التخفّف منه وإلقاؤه بعيدا، يدفع صاحبه إلى خارج دائرته الاجتماعية، وقد تمارس عليه نوعا من العزلة بطريقة ما.

وحين يتبرّع البعض بتقديم المزيد من المعلومات عن نفسه، أو عن تفاصيل حياته وتحرّكاته، عن صوره وجلساته وتنقّلاته، فإنّه يمنح الآخرين مزيداً من الحرّية في اقتحام عالمه، والاطّلاع على تفاصيله، وتكون الخصوصية المتخيلة في هذه الحالة ضرباً من العبث أو الجنون أو الوهم المستحيل.

هناك مَن يستعرض كلّ لحظة من لحظات حياته، ويقوم بتوثيقها سواء من خلال الصور أو الفيديو، ويسعى بعد ذلك إلى كتابة تعليقات عليها، تعكس الحالة النفسية والشعورية في تلك اللحظة، بحيث يستعيض عن دفاتر اليوميات التي كانت سابقا ملاذا لأصحابها، وتحظى بأهمّية عظمى لديهم، ناهيك عن الحميميّة والسرّيّة باعتبارها تحتوي على ما يجول ببال صاحبها، وما يفكّر به، وما يوجعه أو يفرحه أو يحلم به، ومن ثمّ يجعل جدار اليوميات الافتراضيّ بديلا واقعيّا عن دفتر يومياته السرّيّ المفترض، ليكون مستباحا، ومكشوفا، وباحثا عن الرضا والسعادة في ما يفعل.

أصبحت الخصوصية في عالم اليوم مصطلحا زئبقيّا، فالتكنولوجيا التي يفترض بها أن تكون لتيسير الحياة أفرزت مشاكلها وتأثيراتها الجسدية والنفسية، وخلقت جملة من العقد المستعصية بدورها، قد تبدأ بالإدمان، ولا تنتهي بانتهاك الخصوصية، أو الارتهان لسطوتها القاهرة.

أصبح إنسان اليوم مقيّدا بالسرعة التي تجتاح عصر المعلومات، وكأنّ هذه السرعة بدورها صارت كهفاً متنقّلاً، والمرء بات مقيّدا به ومحاصرا بعتمته، أو محيطه الذي يشكّل حاجزاً بينه وبين واقعه، فكيف في المكان وليس فيه في الوقت نفسه، ومع الآخرين ومنقطعاً عنهم كذلك، وتتحوّل الوسائل التي يفترض بها أن تكون للتواصل إلى أدوات للقطيعة والتباعد، وتخلق شعورا بالإيهام أنّ التواصل على أشدّه على اعتبار أن الآخر منكشف عليه، ومنفتح عليه بكلّ تفاصيله وأفعاله وأفكاره.

الانفتاح والحذر

لا يكتفي عصر انتهاك الخصوصية بتقصّي الأفعال، بل يطالب بالكشف عن الأفكار. يبعث على التفكير في مسابقة الزمن لطرح أفكار قد تكون متهوّرة، أو غير ناضجة، بحيث يحلّ الانسياق وراء المكاشفة محلّ التأنّي والتروّي والتفكّر قبل طرح أيّ فكرة، مهما بدت بسيطة.

عالم يملأه الضوء لكنه مظلم

تعمل معظم وسائل التواصل على جعل إنسان العصر الحديث مقيّدا بالرغبة في الظهور والاستعراض، لاهثاً خلف بريق الإعجاب وتبادل التعليق والمديح المجانيّ الذي يخلو من معناه وقيمته، من شدّة تكراره بطريقة قد توصف بالفجاجة لما يصمها من سطحية وابتذال أحيانا.

عالجت الكثير من الأعمال الدرامية والسينمائية تأثيرات التكنولوجيا على حياة الناس، وكيف أنّها تقودهم إلى متاهات مظلمة، تخرجهم عن طورهم، وتدفعهم إلى اقتراف حماقات كارثية تؤدي بهم إلى التهلكة، أو تتسبّب لهم بعاهات نفسية وجسدية خطيرة، كمسلسل "مرآة سوداء – بلاك ميرور" البريطاني الذي أظهر، عبر عدّة أجزاء، ومن خلال زوايا غير مألوفة، الجانب الوحشيّ البشع لسطوة التكنولوجيا وعبثها بحياة من يرتهنون لها، أو مَن يقعون في فخاخها القاهرة.

أن ينفتح المرء على الآخرين يختلف عن منحه الإذن لهم للتعدّي على خصوصيته المفترضة، ولا يعني بأيّ شكل من الأشكال الهروب إلى قوقعة الذات والانغلاق عليها، واستعداء الجديد الذي من شأنه تيسير سبل العيش والتواصل، بل يفترض نوعاً من المواءمة بين الشخصيّ والعامّ، ولا بأس بالعمل على تعزيز جدران الحماية الشخصيّة بمزيد من الحرص والتدقيق، بحثاً عن شيء من راحة البال، أو شيء من الهدوء والسلام بعيداً عن ضوضاء مفتعلة في عالم هلامي يكون صدى للكهف المعتم الذي يهرب منه المرء نفسه، والذي قد يحمله في داخله كنوع من الدراما المتعاظمة في أعماقه.

بدايات تتبادل المواقع

شرف الدين ماجدولين
كاتب مغربي

في اليوميات المنشورة لروائيين أو في رسائلهم وتأملاتهم بصدد الكتابة الروائية، في كتابات أمبرتو إيكو وأورهان باموك وميلان كونديرا وهنري جيمس وعبدالرحمن منيف وماريو بارغاس يوسا، نجدهم يتوقفون عند تفاصيل ما قبل الشروع في صياغة المسودات، لحظة الاشتغال على الأرشيف والبحث والتقاط الصور والتعرف على ملامح شخصيات وزيارة مواقع ومكتبات ومتاحف، وأسئلة متراسلة تبحث عن إجابات، وتدوين ملاحظات ضمن جذاذات خاصة، عن فضاءات وشخصيات، أو أفكار غير واضحة بصدد موضوعات...

تفاصيل لا حصر لها تكمن في بداية البدايات لكل رواية، أو ما قبل البدايات إن أردنا الدقة، هي ذات التفاصيل التي تتراكم في ورشة الرسام، صور وتخطيطات، وملاحظات مكتوبة، ولُقى، وعشرات المستنسخات. ثمة دوما بدايات يمكن أن توصف بأبحاث أو تخطيطات أو مدونات مشتركة، قبل الشروع في التصوير بالكلمات أو الأصباغ.

فكرة البداية هنا لا تقف عند حدود تطويق الأصل، واستيضاح الفكرة، وتحديد مسارها، وإنما في الوقوف عند نقطة تمكّن من تمثل ملامح الانتقال إلى المسودات، أو الصيغ الأولى. في مقولة بالغة الدلالة لأورهان باموك ضمن كتابه "الروائي الساذج والحساس"، يقول ما يلي "يشبه الروائي الرسامين الصينيين القدماء، الذين يتسلقون الجبال من أجل التقاط إحساس مناظر طبيعية واسعة... ومكان المراقبة، الذي يشرف على كل شيء من الأعلى، بنظرة واحدة، والذي يجعل تلك اللوحات ممكنة، هو التخيّل، ولا يوجد رسام رسم لوحاته على قمة جبل. بنفس الطريقة يكون بناء الرواية مقترنا بالبحث عن نقطة وهمية بحيث يمكن من خلالها الإشراف على المشهد بالكامل".

ولعل فكرة الإطلالة من أفق شاهق على مشهد، بقدر ما توحي بالرغبة في امتلاك "إطار" حاصر للوقائع، والفضاءات، والألوان والملامح والضياء، فإنها توحي بالتشوف إلى امتلاك "وهم" تبديد الغموض، واستيضاح الرؤية، إذ لا يمكن الانتقال من الأبحاث والمدونات إلى المسودات دون الوقوف عند نقطة بداية تلهم اليد، في الكتابة والرسم على حد سواء.

لكن لا تنتهي عقدة البداية عند هذا الحد في اللوحة أو الرواية، ثمة تماثل في استرسال التشكيل من بدايات تبدو متوالدة، من هنا يمكن فهم القناعة التي تركب الروائي والرسام معا، بأن تجاوز البدايات أساسي حتى وإن لم يتم استيضاح ما بعدها، فعدد كبير من روائيي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ممن ألفوا نصوصا تمتد على مئات الصفحات، لم تكن لهم معرفة تامة بمسار شخصياتهم، ولا بمآلات وقائعهم، كانت الكتابة لديهم استكشافا دائما لاحتمالات تولدها تفاصيل طارئة، لم تخطر على البال في البدايات الأولى، تماما مثلما يحدث في اللوحات، ليس فقط في أساليب الفن المعاصر، بل في مجمل تاريخ الفن، حيث تكون اللمسات النهائية "غير نهائية" لفترات طويلة، قبل أن تكتمل التحفة، وحيث الصيغة النهائية تتوج مسارا حافلا من الترددات والسوانح والمراجعات والتحولات الجذرية.

> في الرسم كما في الكتابة الأدبية يعد تجاوز البدايات أساسيا حتى وإن لم يتم استيضاح ما بعدها

يمكن أن نقول إن العمل ذاته يتحول إلى أديم تتوالى قشراته المزاحة تدريجيا، قبل الوصول إلى القرار المستبطن للمعنى، ذلك ما يؤكده على الأقل بوح "مروان قصاب باشي" حين كتب "كلما وصلت إلى اقتناع في عمل فني أثناء العمل المرير، أعود في اليوم التالي لأرى نقصا أو أطمح في تغيير كي أصعد العمل... أنظر إلى العمل وأرى الاحتمالات الممكنة ولكن الغوص في هذا العمل الدبق يشبه من يغوص في مستنقع ليخرج درة، ما أصعب الوصول إلى الدرة". في كتاب "تقرير إلى غريكو" الذي أراده نيكوس كازانتزاكيس جردا لسيرة وتراكمات وأحلام ومتاهات يقدمه إلى جده، والجد هو "غريكو" الرسام الشهير ذو الأصول اليونانية، يشير في صفحة من البداية إلى شهوته العارمة لاقتراض بضعة شهور من الزمن، من الآخرين، فقط ليعيد كتابة ذلك "التقرير"، لم يكن مقتنعا بالمسودة، وأدرك أن ما فضل من الوقت قصير، لا يكفي للانتهاء من مشاريع لم يشرع فيها بعد، ويحلم بإنجازها.

كانت فكرة تقديم "التقرير" في صيغته البدائية مرعبة، وكان متأكدا من أنه لو عاد إلى البداية مرة أخرى لكتب تقريرا مختلفا، لدرجة خوفه من ضياع مخطوطة المسودة الوحيدة، فأودعها قبل رحلته الطويلة إلى الصين، عند رسام شاب كان يسميه "قابلته" لأنه كان يأتي من الفجر دائما ويصعد إلى مكتبة نيكوس مشوّشا بمشكلات وجودية عظيمة... هل كانت صدفة فقط أن تودع المسودة الأولى والوحيدة، التي لم تبرح البدايات عند رسام شاب، وأن تكتب كتقرير إلى رسام شهير؟

قد تكون، مرة أخرى، ملمحا مضافا من ملامح ما يسمى بمكر التاريخ، الذي يجعل المصادفات طافحة بالمعاني، المعاني ذاتها التي لا تمثل في النهاية إلا استجابة لقرار الشروع في البداية، ذلك على الأقل ما يؤكده استنتاج بارع لإدوارد سعيد "البداية هي الخطوة الأولى في الإنتاج المتعمد للمعنى".

البدايات طريق إلى الاكتشاف (لوحة للفنان عبدالوهاب مرسي)

حكاية الذات المفردة في مواجهة الذات الجماعية

ميلانو (إيطاليا) – بعد صدورها في طبعتها المغربية، تصدر في الطبعة العربية رواية "رسائل من امرأة مختفية" للناقد والروائي المغربي محمد برادة، عن منشورات المتوسط بإيطاليا.

رواية قال عنها النقاد إنها جزء من سيرة برادة الروائية، انطلاقاً من زمنها الذي يبدأ مباشرة بعد الاستقلال وعودة الكاتب من مصر، كما أن سردها يمتدّ إلى قضايا الاعتقال السياسي، وصولا إلى الإحساس اليائس بلا جدوى الإصلاحات في المغرب. هي حكاية الذات المُفردة في مواجهة الذات الجماعية من نافذة الموروث والتابو والمؤسسة.

في ظروف غامضة، تختفي "جاذبية عبدالعزيز"، صحافية وكاتبة مغربية جريئة، تحملُ همومَ ما بعد الاستقلال وتسعى إلى التَّحرُّر من السُّلطة الذكورية المُجحفة، في مناخ اجتماعيّ وسياسيّ مضطرب. منذ حكومة عبدالله إبراهيم، إلى الصراع بين المعارضة والقصر، مرورا بأحداث انتفاضة 23 مارس 1965، ثم مرحلة السبعينات التي شهدت موجة اعتقالات واسعة في صفوف مناضلي اليسار، ودرب مولاي علي الشريف، وناس الغيوان، إلى غيرها من الأحداث والشواهد التي تنقل صورةً بانورامية عن تاريخ المغرب في تلك الحقبة.

الرواية يمتزجُ فيها الخيال بالواقع، عبر علاقة محمومة تجمع بين "جاذبية"، وشاب يساري متخصص في الاقتصاد وقارئ متابع للأدب والفكر، هو "هيمان السبتي"، الذي تداهمه الأسئلة، ويصطدم بجدران صماء في رحلة اقتفائه لأثر امرأته المختفية، لتكون هذه الرحلةُ المُتعددة الأصوات والرسائل ملامسة حقيقية لمناطق الظل في الذاكرة والذات والمجتمع، وتمجيدا أدبيا لما كتبتْهُ امرأةٌ سابقةٌ لزمانها؛ من أشياءَ تبدو مُتقدِّمةً عمّا نعيشه اليوم.

ونذكر أن محمد برادة روائي وناقد مغربي، من مواليد 1939. يكتب برادة القصة والرواية، كما يكتب المقالة الأدبية والبحث النقدي، وله في هذه المجالات جميعها العديد من الدراسات وبعض الكتب ذات الأثر اللافت في المشهد الثقافي والأدبي والنقدي العربي، صدرت له أيضا بعض الترجمات لكتب أدبية ونقدية ونظرية أساسية، لكل من رولان بارت وميخائيل باختين وجان جنيه ولوكليزيو وغيرهم، كما ترجم لغيرهم العديد من النصوص الأساسية في مجالات مختلفة.

> الرواية يمتزجُ فيها الخيال بالواقع لتقدم صورة بانورامية عن تاريخ المغرب من خلال قصة اختفاء صحافية

كان من مؤسسي اتحاد كتاب المغرب، وانتخب رئيسا له في ثلاث ولايات متتالية، انتمى في فترة من حياته إلى حزب الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية، وساهم في المنظمة العربية لحقوق الإنسان، لكنه تفرغ فيما بعد للعمل الأدبي والنقدي. تُرجمت العديد من مؤلفاته إلى لغات أجنبية.